برنامج [قـرآنـهـم] - الحلقة (20)

الاربعاء : 3 شوال 1438هـ عيد الفطر المبارك 2017/6/28م

✤ تمّ الحديث فيما يرتبط بقصّة شُعيب النبي وآخر آية كانت هي الآية 93 من سُورة الأعراف.

من الآية 94 وإلى الآية 102 الآيات تتحدّث عن مجموعة أو عن جانب من السُنن الكونيّة التي تحكمُ هذه الحياة.. أمرّ عليها مُروراً سريعاً

في الآية 94 {وما أرسلنا في قرية من نبيّ إلّا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلّهم يضرّعون}. تقدّم الحديث فيما تقدّم من سورة الأعراف في قصّة أبينا آدم، وبعد ذلك تناولتْ سُورة الأعراف قَصص مجموعة من الأنبياء: نوح، هود، صالح، لوط، وشُعيب.

لوط من الخط الإبراهيمي والبقية من الخط الآدمي، وعند شُعيب هناك لقاء ما بين الخطّ الإبراهيمي والخط الآدمي.. ولعلّ في قصّة عصى موسى هناك رمزيّة واضحة فعصى موسى أخذها مِن شُعيب، وشُعيبٌ ورثها من آدم.. إنّها العصى التي تنقّلت بين الأنبياء حتّى وصلت إلى شعيب وشعيب أعطاها لِموسى، وهنا يلتقي الخطّان الآدمي والإبراهيمي، وهذه العصا عند إمام زماننا "صلواتُ الله عليه"

الرمزيّة واضحة، فإمام زماننا هو الخُلاصة وهو الزُبدة (البقيّة الباقية: بقيّة الله).

● ومرّ الحديث في تفاصيل الوقائع السابقة وكيف كانتْ دعوة هؤلاء الأنبياء الذين ذُكِروا وكيف كانتْ استجابةُ أقوامهم وماذا حلّ بأقوامهم بعد ذلك.. مع أنّ البعض منهم كنوح النبي استمرّ في دعوته مئات طويلة جدّاً من السنين.

● {وما أرسلنا في قرية من نبيّ...} هذا قانون.. ظاهره فيه إيلامٌ لأهل هذه القرى ولكن صلاح الناس يجري بحسب تصرّفاتهم وبحسب ما هم عليه. فمِن الناس مَن صلاحه في المَرض، ومِن الناس مَن صلاحه في الصحّة والعافية.. من الناس مَن لم يمرض فإنّه يطغى ويطغى ويرتع في المعاصي إلى حدّ لا يستطيع أن يؤوب إلى جادّة الصواب.. فحينما يُدمَغُ بمرضٍ يشلّه ويُقعده فإنّ صلاحهُ في ذلك.

■ {وما أرسلنا في قرية من نبيّ إلّا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلّهم يضرعون} البأساء: قد تكونُ عُنواناً إذا جاءتْ مع الضرّاء، قد تكون عنواناً للألم المعنوي، والضرّاء إذا جاءت مع البأساء قد تكون عنواناً للضرر المادي، فما يلحق الأبدان ضرّاء، وما يلحق النفوس (المشاعر، العواطف) هو بأساء. {لعلّهم يضرعون} القانون الإلهي الذي يُتعامل به مع الأمم التي يُبعث إليها الأنبياء هو أن تتذوّق هذه الأمم مرارةً مِن الأحداث التي تُحيط بها كي يبحثوا في أحوالهم وفي الذي جرى عليهم، فيستشعرون الصَغار، وشيئاً فشيئاً تضعفُ عندهم حالة الاستكبار.. فلربّما لانت قلوبهم وإذا لانت القلوب فإمكانية أن تتوجّه إلى الحق وأن تُذعن للحقيقة أكثر ممّا لو كان الاستكبار قد هيمن عليها وسيطر على جميع جوانبها.

لذا فالمصاعب والآلام في أحيانٍ كثيرة تقود الإنسان إلى تكامل خفي، بغضّ النظر عن الهدى والضلال.. فالذي تمرُّ عليه التجارب المُؤلمة يصلبُ عُودهُ في مواجهةِ هذه الدنيا ويمتلكُ خبرة في معرفة أحداثها، وأنّه ما من شيء يدوم، فلا الفرح بدائم، ولا الحزن بدائم ولا القوي يبقى قوّياً ولا الضعيف يبقى ضعيفاً.. هكذا هي الدنيا وهكذا الأيام دُول.. فالصاعدُ نازل، والنازل صاعد. ولربما مِن أفضل الصُور في التعبير عن الدُنيا هو ما جاء في كلماتهم الشريفة وهم يُحدّثونا عمّا ستكون عليه الأوضاع في زمان غيبة إمامنا، يقول الأمير: (ولتُساطن سوط القدر حتّى يعود أسفلكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلكم..). هكذا هي الدنيا في زمان الغَيبة وفي غير زمان الغَيبة.. ولكن الأئمة يتحدّثون عن شؤونات زمان الغَيبة بنحو خاص لِخصوصية هذا المقطع الزماني من وجهة نظر عقائدية.

● {وما أرسلنا في قرية من نبيّ إلّا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلّهم يضرعون} هذا القانون سنجده مُنطبقاً بالكامل وبشكل واضح فيما يأتي من قصص بني إسرائيل مع الفراعنة الأقباط.

{يضرّعون} يعيشون حالةً من التواضع والإخبات في نفوسهم، يستشعرون الضَعف والصَغار لعدم قدرتهم على مواجهة هذه الأحداث التي عُبّر عنها بالبأساء والضرّاء.. فلربّما يدفعهم لذلك لأن يتّجهوا إلى الجهة التي تُقرّ الفطرة الإنسانية أنّه لا بُدّ من وجودها لتدفع هذا الضيم والألم والضيق.

■ {ثمّ بدّلنا مكان السيّئة الحسنة حتّى عفوا وقالوا قد مسَّ آباءَنا الضراءُ والسرّاء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون}

● {ثمّ بدّلنا مكان السيّئة الحسنة حتّى عفوا} أي بعد ذلك حينما لا يستجيبون لنبيّهم فإنّنا سنُخفّف عنهم.. والمُراد من السيّئة: أي السيّئة بنظرهم، التي كانتْ تسوؤهم.. البأساء والضرّاء تسوء الإنسان.. والحسنةُ هُنا بما هو معاكس للبأساء والضرّاء، أي ما يبعث على راحة الإنسان وعلى اعتدال مزاجه بسبب ما يلقاه من راحة في هذه الدنيا.

● {حتّى عفوا} أي حتّى كثروا، والكثرة علامة للرخاء، وعلامةٌ للغنى، وعلامة للراحة والقوّة.

● {حتّى عفوا وقالوا قد مسَّ آباءَنا الضراءُ والسرّاء} يعني نحن في عَصرنا لا ضرّاء ولا سرّاء.. السرّاء والضرّاء قد مسّتْ آباءنا، والضرّاء هي ما يُسبب الضرر، والسرّاء ما يُسبب السرور والفرح، وما يُسرّي الهموم عن النفس.

● {فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون} هنا قد استحقّوا عذاباً، ولكن جاءهم العذابُ بغتة.. ومرّ الحديث في نماذج من الأُمم السالفة. ثُمّ تأتي الآية 96 لتُبيّن لنا قانوناً واضحاً:

{ولو أنّ أهل القُرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركات مِن السماء والأرض ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون}

القرى جمع لقرية والقرية هي المدينة، القُرى: أهل المُدن، أهل الحضارات، أهل الدُول السابقة.

● مرّت علينا في الآيات المُتقدّمة {إنّ الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفتّح لهم أبوابُ السماء} فإذا أُغلقت أبواب السماء في وجوههم، فأبواب الأرض أيضاً ستُغلق في وُجوههم! هذا المضمون في الآية هو حديثٌ عن الأمم السالفة وأيضاً عن الأمم اللّاحقة، ولكن نوع العذاب يختلف من أُمّة إلى أُمّة ومن زمان إلى زمان، وبعد بعثة نبيّنا "صلّى الله عليه وآله" اختلفتْ صُور العذاب الذي ينزل على الأُمم وعلى الناس، فقبل نبيّنا كان للعذاب صور، وبعد نبينا صار للعذاب صُور وهذه الصور مُختلفة. لكن القوانين والسُنن هي هي.. فإنّه يجري على هذه الأمّة ما جرى على الأُمم السابقة.

■ وقفة عند مقطع من حديث أمير المؤمنين في كتاب [سليم بن قيس: ج2]: (ولو أنّ الأمّة مُنذ قبضَ الله نبيّه اتّبعوني وأطاعوني لأكلوا مِن فوقهم ومن تحت أرجلهم رَغَداً إلى يوم القيامة). شرحٌ واضح وصريح لهذا القانون الذي تحدّثت عنه الآية 96 من سُورة الأعراف.

■ في الآية 97 من سورة الأعراف {أفأمِن أهل القرى أن يأتيهم بأسُنا بياتاً - ليلاً - وهم نائمون} الآية تقول ذلك لأنّهم كذّبوا.

هل عندهم صك في أنّ العذاب لم ينزل عليهم في ليلهم؟!

■ {أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسُنا ضحىً وهم يلعبون} المُراد من يلعبون: أي وهم مُنشغلون في شؤوناتِ حياتهم الدنيوية، فهذه الحياة في حقيقتها هي لعبٌ ولهو، لأنّها محدودة. فهذا الذي يقضي وقته ليبني بناء كبيراً، أو يبذل كلّ شيء كي يُؤسّس لعرش ملكي وكأنّه سيبقى خالداً.. الذي ينظر إلى هذا الأمر من خارج حدود الدنيا يرى أنّ هذا الشخص يقوم بلعبٍ لا أكثر.. فإنّه ربّما بعد ساعتين سيُفارق الدُنيا

إذا كان من شيء له قيمة في هذه الحياة فهو الشيء الذي يرتبط بإمام زماننا حتّى لو أنّنا نموت بعد لحظة ولكنّنا في هذه الثانية نصرفها في طاعته فهذا الأمر هو الذي يستحقّ العناء، ويستحقّ أن نبذل الجهد لأجله ولو كان في مُدّة ثانية واحدة

أمّا أن يصرف الإنسان عُمره في أشياء ربّما يفقدها بعد لحظات وقيمتها تبقى في الأرض، لن تُسجّل له، إن لم تكن وبالاً عليه في يوم القيامة.

● أليس في الروايات ما مِن مجلس يجلسه الإنسان ويكون هذا المجلس خليّاً من ذكر عليّ وآل عليّ (في أفق الولاية، في أُفق البراءة، في سائر شؤوناتهم التي ترتبط بهم وبأشياعهم المُخلصين..)، إذا كانتْ هذهِ المجالس خليّة من هذه المضامين فإنّها ستكون وبالاً على الإنسان في يوم القيامة.. أقل ما يُمكن أنّه سيُحاسبُ عليها وستطول فترة وقوفه، وربّما فتّحتْ له صفحات سيكون مسؤولاً عن آثارها وعمّا ترتّب عليها من مفاسد وسيّئات. فالمجالس والأعمال والأقوال والمشاريع التي ترتبط بإمام زماننا هي المشاريع الناجحة دنيوياً وأُخروياً.. قطعاً هذا لن يتحقّق بالشكل الكامل المُكتمل ما لم تكن هناك من ساحة ثقافية ومن عقلٍ جمعي يتحرّك في هذا الاتّجاه.. وإلّا فالحركة الفردية لا تعود بالنفع إلّا على نفس الفرد.

● هذا المضمون الذي جاء في الآية 97 والآية 98 من سورة الأعراف هو نفس المضمون الذي جاء في الآيات الأولى في أوّل سورة الأعراف {وكم من قرية أهلكناها فجاءَها بأسُنا بياتاً أو هم قائلون} هم قائلون: يعني هم في حالة نوم في وقت القيلولة، والقيلولة هذه هي جزء من لعب الدنيا. إذا كانت هذه القيلولة في المسار والسياق الصحيح فإنّها تعود بالنفع على الإنسان دُنياً وآخرة.. وإذا كانت هذه القيلولة من تعب المعاصي أو لتجديد النشاط لأجل المعاصي فهي لعبٌ، بل هي وبالٌ على الإنسان. الدُنيا فيها خطّان:

• الخط الأوّل: خطٌ يستطيع الإنسان أن يسير فيه (يأكل، يشرب، يتنعّم، يتلذّذ، يُعمّر الأرض، يبني القصور، يُؤسّس العروش للعدالة والحقّ..) وما ذلك بلعب، نعم قد يكون لعباً مِن جهة أخرى وهو أنّ كُلّ شيء في هذه الدنيا سينطوي، ولكن تبقى له قيمة حين يكون مُرتبطاً بإمام زماننا صلواتُ الله عليه.

• والخط الثاني: يُمكن للإنسان أن يسير فيه، وأن يأكل وأن يشرب وأن يبني وأن يحكم ولكن هذا سيكون وبالاً عليه لأنّه ليس مُرتبطاً بإمام زماننا.

(مثال لتقريب الفكرة)

■ {أفأمنوا مكْر الله فلا يأمن مكْر الله إلّا القوم الخاسرون} ومرّ علينا في قصّة أهل مدين {الذين كذّبوا شُعيباً كأن لم يغْنَوا فيها الذين كذّبوا شُعيباً كانوا هم الخاسرين} بعدما حلّت في دارهم الرجفة.
{مكر الله} هي القوانين التي يتعامل فيها مع البشر.

● ما جاء في الآيتين 94، 95 هو مِصداق مِن مصاديق مكْر الله.. أنزل الله عليهم البلاء لعلّهم يندفعون باتّجاه الحق، ولكنّهم لم يستجيبوا، فكانت العقوبة هي أن أنعمَ عليهم {ثمّ بدّلنا مكان السيّئة الحسنة حتّى عفوا وقالوا قد مسَّ آباءَنا الضراءُ والسرّاء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون} هذا هو مكر الله. قوانين الله في التعامل مع البشر على أساس أعمالهم، فمكر الله ليس هو المكر والدهاء الإبليسي. المكر يتبادر منه دائماً الدهاء الإبليسي. {أفأمنوا مكْر الله فلا يأمن مكْر الله إلّا القوم الخاسرون} أنظمة التعامل مع البشر وتطبيقها.. من هنا جاء في تفسير (مكر الله) أي عذاب الله، لأن عذاب الله هو تطبيق للسُنن والقوانين التي يتعامل بها الله مع البشر وفقاً لأعمالهم وتصرّفاتهم وما يصدرُ منهم.

■ {أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها - من بعد أولئك الأقوام الذين جرى عليهم ما جرى - أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون}. ما بال الناس هؤلاء؟ قوم نوح ذهبوا، وجاء قوم عاد وذهبوا.. وقد ذكّرهم نبيّهم هود بما جرى على قوم نوح، وهكذا سائر الأمم، وهكذا نحن، أجيالٌ ذهبتْ وأجيال جاءتْ، ورأينا ما رأينا فيمَن سبقنا ولكنّنا لا نتّعظ!
الساسة مثلاً في الدول العربية.. الحُكّام السابقون زالوا مِن عديد مِن الدُوَل، وجاء ساسة جُدد فلا اعتبروا ولا انتفعوا ممّا جرى على الذين كانوا قبلهم على هذه العروش والكراسي. (والقضيّة ليستْ خاصّة بالدُول العربية، إنّما هذا مِثال).
أما وصل هؤلاء إلى هذه النتيجة: {أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم} مثلما أصبنا الذين سبقوهم!

● {ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون} هذا الطبع على القلوب يكون بعد أن يتمادى الإنسان بذنوبه، مثلما تُحدّثنا الروايات وترسم لنا صورة واضحة جدّاً مِن أنّ قلب الإنسان في بداياته أبيض لا تُوجد فيه آثار للذنوب، وحينما يبدأ الإنسان يُذنب تحدث نقطة سوداء في هذا القلب، وكلّما ازدادت ذنوبه كلّما اتّسع السواد في قلبهِ إلى حدّ سيضيع كلّ البياض ويتحوّل القلب إلى قطعة سوداء وحينئذٍ تأتي مرحلة "الطَبع" وهو الختم، فيُطبع عليه بأنّ هذا القلب لا يُرجى خيره، لا فائدة فيه.. وحينئذٍ لا يسمع، لا يرى.. الآية تتحدّث عن هذا.

● {ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون} أي لا يُميزون بعد ذلك بين الحقّ والباطل! لا يُميّزون بين ناصحهم وفاضحهم، لا يُميّزون بين مَن يُريد أن يضحك عليهم، وبين مَن يُريد أن يجعلهم يضحكون في عاقبة الأمر!

■ {تلك القرى نقصُّ عليكَ من أنبائها ولقد جاءتهم رُسُلهم بالبيّنات فما كانوا ليُؤمنوا بما كذّبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين}
الناس هم الناس في جيلنا هذا وفي الأجيال التي سبقتنا بنحوٍ قريب وفي الأجيال اللّاحقة.. وقصص الأقوام السالفة هي قصصنا وحكاياتنا.
قد تتبدّل فيها المظاهر والأسماء والملابس والأطعمة، لكنّ المبدأ واحد، جوهر الموضوع واحد هو هو.

● {جاءتهم رُسُلهم بالبيّنات} البيّنات: الحقائق الواضحة (علماً، فهماً، استدلالاً، تنظيماً، تكاملاً..)

● {فما كانوا ليُؤمنوا بما كذّبوا من قبل} الروايات تُحدّثنا بما كذّبوا به من قبل في عالم الذرّ الأوّل.. تطبيقٌ لجانب مِن السُنن والقوانين الكونية الإلهية التي تتحكّم فينا وفي حياتنا.
فتلك القُرى التي مرّ ذكرها إنّها في عالم الذرّ ما كانت آمنت واستجابتْ، وقطعاً هذا لا يعني بالضرورة أنّ كُلّ مَن آمن في عالم الذر فإنّه سيكون مؤمناً.. فستأتينا آياتٌ تُشير إلى غير ذلك.. وكذلك ما كُلّ مَن كفر في عالم الذرّ فإنّه سيكون كافراً في هذهِ الدُنيا.. فعالم الذر مرحلة من مراحل حياة الإنسان. مثلما الرحم.. فابنُ الزنا يتكوّن في الرحم من عمليّة مُحرّمة، لكنّه حين يخرجُ إلى الدُنيا ليس بالضرورة أن يحمل أوزار الجريمة التي جرت وتكوّن منها في رحم أمّه.. فكما يقول إمامنا الصادق: (إنّ ابن الزنا يُستعمل، فإن عمل خيراً فهو على خير، وإن عمل شرّاً فهو على شرّ) ولكن في الأعم الأغلب المُتكوّن من هذه العملية يميل إلى الجانب الأعوج، فابن الزنا يحنُّ إلى الزنا - كما ورد في الروايات -
كذاك الذين كفروا في عالم الذرّ يميلون إلى الكُفر في هذا العالم.. ولكن ليس بالضرورة إذا كان قد كفر فإنّه لن يستطيع أن يُؤمن.

● {فما كانوا ليُؤمنوا بما كذّبوا من قبل} كذّبوا في عالم الذرّ الأوّل {كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين} مثلما تقدّم الحديث {ونطبعُ على قلوبهم فهم لا يسمعون} أولئكَ الكافرون الذين كفروا في الذر وبقوا على كُفرهم في هذه الدُنيا مع أنّ مَجالاً مفسوحاً لهم أن

يعودوا إلى الحّق لكنّهم أصرّوا على ما أصرّوا عليه، فحينما أصرّوا فإنّنا سنطبع على قلوبهم، وحينئذٍ ستُغلقُ هذه القلوب على شرّها ولن تستطيع الخلاص من هذا الطبع!

■ {وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإنْ وجدنا أكثرهم لفاسقين} هذا العهد هو الذي أُخذ عليها في الذرّ، فأُخِذ عليهم العهد بالإيمان وآمنوا، ولكنّهم مع ذلك كفروا في هذه الدُنيا.. فهؤلاء لم يفوا بالعهود التي أعطوها في الذر. {وإنْ وجدنا أكثرهم لفاسقين} فسقوا أي خرجوا عن العهد.

(وقفة لبيان مع مُصطلح "فسق" في اللّغة)

● سورة الأعراف فيها حديث عن الذر، وستأتينا الآية 172 تتحدّث عن الذرّ وعن العهود والمواثيق {وإذ أخذ ربُّك من بني آدم مِن ظُهورهم ذُرّيتهم وأشهدهُم على أنفُسهم ألستُ بربّكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كُنّا عن هذا غافلين} وسيأتي الحديث عنها في الحلقات القادمة.

فهاتان الآيتان تتحدّثان عن عهود الناس في الذرّ {تلك القُرى نقصُّ عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبيّنات فما كانوا ليُؤمنوا بما كذّبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين* وما وجدنا لأكثرهم من عهدٍ وإنْ وجدنا أكثرهم لفاسقين}

الآية الأولى تحدّثت عن كافرين، والآية الثانية تحدّثتْ عن فاسقين.. المجموعة الأولى كفرتْ في الذرّ وبقيتْ على كُفرها في هذا العالم، والمجموعة الثانية آمنتْ في الذرّ ولكنّها نقضتْ إيمانها في هذا العالم.. الذي يجري هناك ليس بالضرورة أن يجري بنفسهِ في هذه الأرض. (هذا هو القانون الأعظم، "قانون البَداء" هو أعظم قانون يُدير هذا الكون في جانبه التكويني وفي جانبه التشريعي).

■ في الآية 103 من سورة الأعراف سنبدأ مع قصص بني إسرائيل.. والقرآن الكريم اهتمّ كثيراً بقصص بني إسرائيل، والسرّ في ذلك هو تكليفهم بنحو مُباشر ومؤكّد بنبوّة نبيّنا وولاية عليّ والأئمة من بعده - كما بيّنت ذلك أحاديث العترة -

■ {ثمّ بعثنا من بعدهم - أي من بعد الأنبياء الذين تقدّم ذكرهم - موسى بآياتنا إلى فرعون وملئهِ فظلموا بها فانظرْ كيف كان عاقبة المُفسدين}

آيات موسى: مُعجزاته جزء منها، وتوراته جزء منها، ومنظومة دينه بكلّ تفاصيله جزء منها، آياتهُ: كُلّ ما عنده.. والأنبياء هم أنفسهم آيات (في أخلاقهم في تصرّفاتهم، في حديثهم، في ماضيهم وحاضرهم، في كُلّ شأنٍ من شؤوناتهم) فالأنبياء هم بأنفسهم آيات، ولكنّ الناس عميان!

● {ثمّ بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئهِ} ملأ فرعون هم أيضاً النُخبة مِن رجال الدين والسياسة والمال، ومعهم كبار السَحَرة.. باعتبار أنّ فرعون كان مُهتمّاً بالسِحْر إلى أبعد الحدود، وكان السِحْر يُشكّل جُزءاً من ثقافة الأقباط آنذاك.

■ قوله تعالى {وقال موسى يا فرعون إنّي رسولٌ من ربّ العالمين* حقيقٌ على أن لا أقول على الله إلّا الحقّ قد جئتكم ببيّنة مِن ربّكم فأرسل معيَ بني إسرائيل* قال إنْ كنتَ جئت بآية فأتِ بها إنْ كنتَ من الصادقين* فألقى عصاهُ فإذا هي ثُعبانٌ مبين* ونزع يدهُ فإذا هي بيضاء للناظرين}

هذه الآيات تختصرّ قصّةً وحكاية طويلة.. على سبيل المثال:

{قد جئتكم ببيّنة مِن ربّكم فأرسل معيَ بني إسرائيل} بنو إسرائيل أساساً كانوا في بلاد الشام، ثُمّ انتقلوا إلى مِصْر، وصاروا تحت سُلطة الأقباط (تحت سُلطة الفراعنة).

دين الإسرائيليين كان دينَ آبائهم الذين سَبقوهم، أمّا الفراعنةُ الأقباط فكان لهم دين آخر، لكن الفراعنة آذوا بني إسرائيل كثيراً، والقرآن حدّثنا عن آلامهم وعن عذابهم، وعن المآسي التي مرّت على بني إسرائيل.. فمُوسى هُنا يطلب مِن فرعون أن يُطلِق سراحهم لأنّهم ما كانوا يمتلكون حُريّة الحركة. ● فرعون عُرِف عنه الولع في البنايات العالية.. كان يُحبّ البناء العالي، قصوره عالية، معابده عالية، كُلّ شيء بناه كان عالياً جدّاً.. وفي تلك الأزمنة وسائل العمل في البنايات العالية ما كانت مُتطوّرة، فالعمّال الذين يعملون في البناء يبذلون جُهداً مُضاعفاً وكبيراً، وفرعون أرغم الإسرائيليين أن يعملوا في البناء وأن يعملوا في إعمار بناياته. (وقصّتهم طويلة في تفسير الإمام العسكري.. هناك تفصيل لحكايات اليهود وما جرى عليهم من البلاء والعذاب، وهم يعملون في السُخرةِ عند الفراعنة). فقد لقوا ألماً شديداً، نساؤهم، رجالهم، أطفالهم! فهنا موسى يُطالب فرعون بأن يُطلق صراح الإسرائيليين وأن يأذن لهم بأن يخرجوا مِن مصر وأنّ موسى سيقودهم في رحلة بعيداً عن مِصر وبعيداً عن الفراعنة).

● {ثمّ بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئهِ فظلموا بها} فظلموا بها: أي واجهوا الآيات والبراهين والأدلّة بالاستهزاء بتلك الآيات والاستهزاء بموسى ونقضوا تلك العهود والمواثيق معه. مراراً فرعون يطلب من موسى آية ويُعاهده إذا ما تحقّق هذا الأمر، فإنّه سيُطلِق صراح بني إسرائيل، وأنّه سيأذن لهم بالذهاب مع موسى كي يُهاجروا إلى أرضهم (أرض فلسطين) بعد أن لقوا ما لقوا في مِصر.

● {فانظرْ كيف كان عاقبة المُفسدين} المُفسدون هنا: الفراعنة الأقباط الذين ظلموا بتلك الآيات.

● {وقال موسى يا فرعون إنّي رسولٌ من ربّ العالمين} المُنجّمون قد أخبروا فرعون أنّ نهاية أمره على يد موسى، فحين سمِع فرعون بقدوم موسى إلى مِصْر كان خائفاً جدّاً منه، وقد غلّق الأبواب على نفسه وذهب مُستقرّاً في مجموعة قصورٍ من قصوره من القصور العالية المُغلّقة ذات الأبواب الكثيرة.. ووضع مجموعة من السباع (الأُسد الهائجة) في الحدائق التي تُحيط بقصره، حتّى إذا ما جاء موسى افترسته السِباع (هكذا كان يتصوّر)

وفعلاً جاء موسى يحملُ عصاه، فلمّا توسّط تلك الحدائق وإذا بالسباع تخنعُ بين يديه ثُمّ بعد ذلك تتفرّق! استأذن في الدخول على فرعون فلم يُؤذن له، فحينها طرق موسى الباب الخارجي من أبواب مجموعة القصور هذه، طرقها بعصاه، ففُتحتْ جميع الأبواب وصار ينظرُ إلى فرعون في مَجلسه، وفرعون ينظرُ إليه، فقال فرعون: أدخلوه. فحين دخل موسى على فرعون كان فرعون يجلس في مكان قد هُيئ له على قبّة عالية.. على قُبّة ترتفعُ 80 ذراعاً - كما في الروايات - فدخل موسى وقال الذي قاله ودعاه إلى الإيمان به.. وطالب فرعون بآية فألقى موسى عصاه فتحوّلت إلى كائن مُرعب.. القرآن يتحدّثُ عنها بأنّها تتحوّل إلى حيّة. (هذا تقريبٌ للمعنى، وليست حيّة على نحو الحقيقة.. هي كائنٌ آخر، ربّما فيها شَبَهٌ مِن الحية). حين ألقى موسى عصاه تحوّلتْ إلى كائنٍ مُرعب مُخيف.. فيه وجه شبه من الحيّة، والروايات تقول: أنّ ذلك الكائن الشبيه بالحيّة فُتح هكذا بشكل مُخيف وشُقّ إلى شقّين:

• الشق الأعلى عند مجلس فرعون، عند نهاية القبّة التي ترتفعُ 80 ذراعاً.

• والشقّ الثاني عند الأرض.

ورأى فرعون النيران تستعر فيما بين الشعبتين فتكادُ النيران أن تلتهمه! فصرخ فرعون صراخ الخائفين مُرتعباً: خُذها يا موسى!

وقد أصيب بإسهال حاد مُفاجيء! والروايات تقول: بقيت حالة الإسهال هذه عنده لمدّة طويلة.. فأحدث على تلك القبّة، ظهرتْ علائم إسهاله على تلك القبّة التي كان يجلس عليها والتي صُنعتْ له بشكلٍ رمانة.

● مجلس يستأنس فيه فرعون، وبُني بهذا النحو العالي من البناء، والخارطة كانت كأنّه قد جلس في بناياتٍ بشكل الرمّان.. كما نقرأ في دُعاء السمات: (وبمجدك الذي ظهر لموسى بن عمران عليه السلام على قبّة الرمان وبآياتك التي وقعتْ على أرض مِصر بمجد العزّة والغَلَبة..)

إذا كان فرعون قد أحدث، فكلّ الملأ الذين معه قد أحدثوا أيضاً.. فأيّ رُعبٍ هذا الذي أصاب هؤلاء؟!

■ {ثمّ بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئهِ فظلموا بها فانظرْ كيف كان عاقبة المُفسدين* وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين* حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل* قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين* فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين* ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين}

الثعبان هو الحيّة وقد يُطلق على ذَكَر الحيّة..كانت المعجزة واضحة جدّاً وبالمُستوى الذي يتناسب مع إرعاب فرعون بكلّ جبروتهِ وبكلّ ما عنده مِن إمكانات هائلة. فلم تكن القضيّة حيّة كالحيّات التي نرآها تتحرّك على التراب.. المسألة أكبر مِن ذلك.

● {ونزع يده} هذا المعنى حدّثتنا عنه سُورة طه في قوله تعالى: {واضمم يدكَ إلى جناحكَ تخرج بيضاء من غير سوء آيةً أخرى} واضمم يدك إلى جناحك: أي ضع يدكَ على خاصرتك، ثُمّ اسحبها فإذا هي كالشمس.. النور سطع في كلّ مكان! هذه المعاني لا نستطيع أن نتصوّرها إلّا إذا رأيناها بأنفسنا، فإنّ القرآن يتحدّث عن هذه الآية أنّها مِن الآيات الكُبرى، ولكن بالمُجمل من خلال الآيات والروايات:

فإنّ موسى النبي وضع يده على جناحه ثُمّ نزعها، أي رفعها.. وإذا بشمس (أي: شدّة الأضواء التي انتشرت في المكان وسيطرت على الجوّ) بعبارة أخرى: قوّة هائلة صدرت من يده غيّرتْ الأجواء.

■ {قال الملأ من قوم فرعون إنَّ هذا لساحرٌ عليم* يُريد أن يُخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون}

{قال الملأ} هؤلاء الحاشية، النُخبة، الأعيان.. قالوا ذلك باعتبار أنّ السِحْر كان ثقافة منتشرة في تلك الأصقاع. موسى ما أراد أن يُخرج الفراعنة.. موسى أراد أن يُخرج بني إسرائيل، ولكن هذه القضيّة هكذا تجري دائماً (تقليب الحقائق، الدعايات، التزوير، التشويه) هذا هو شأن الذين يُخالفون أهل الحقّ سواء كانوا من أهل السياسة، أم من رجال الدين الباطل، أم أصحاب رؤوس الأموال الذين يأكلون جهود الناس من دون وجه حقّ!

● {فماذا تأمرون} من السياق يبدو أنّ هذه العبارة "فماذا تأمرون" هذا كلام فرعون يقول لهم.. وقطعاً ليس المقصود أنّهم يُصدِرون أمراً إلى فرعون. المراد: على أيّ شيء يجتمع أمركم؟

■ {قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين} هذه الآية تُشير إلى أنّ هارون كان برفقة موسى، وهذا المعنى واضح أيضاً في السُور القرآنية الأخرى، وواضح في الروايات والأحاديث التي فسّرت وشرحتْ وبيّنت لنا ما جرى بين موسى وفرعون.

{ارجه} اتركه الآن ولننتظر حتّى يُقبِل السَحَرة إلينا من كلّ أرجاء البلاد.
{حاشرين} أي اجمع الناس مِن كل المُدن ومن كُلّ الاتّجاهات، ولنبحث عن كُلّ ساحر مُتمكّن ونأتي بهم جميعاً في مُواجهة موسى وهارون.

■ {يأتوك بكل ساحر عليم* وجاء السحرة فرعون قالوا إنَّ لنا لأجراً إنْ كُنّا نحنُ الغالبين}
واضح مِن كلام السَحَرة أنّ عندهم معلومات، وهذه المعلومات تجعلهم في ريبة مِن أمرهم لذلك يقولون: إنْ كُنّا نحنُ الغالبين، بينما الملأ الذين هم حول فرعون يتحدّثون عن كلّ ساحر عليم.

■ {قال نعم وإنكم لمن المقربين} ليس فقط نُعطيكم أجوراً عالية، بل أنتم ستكونون مِن المُقرّبين مِن الدائرة السُلطانية..كُلّ هذا بسبب رُعبه من الذي رآه من آيات موسى.. واتّفقوا على يوم الزينة - كما بيّنت الآيات والروايات -

■ {قالوا يا موسى إمّا أن تُلقي - تُلقي سِحرك - وإمّا أن نكون نحنُ المُلقين} هنا ينتقل الكلام في سورة الأعراف إلى الحوار الذي دار بين موسى والسَحَرة في يوم الزينة في ساحة المواجهة.

■ {قال ألقوا فلمّا ألقوا سَحَروا أعينَ الناس واسترهبوهم - أخافوهم من العجائب المُخيفة - وجاؤوا بسحر عظيم} لأنّ الساحر في غالب سِحْره يُؤثّر على جهاز البصر.. يُمكن للساحر في بعض الأحيان أن يفعل شيئاً على أرض الواقع، ولكن في أغلب حالات السِحر هو عبثٌ بجهاز البصر.

● {جاؤوا بسحر عظيم} القرآن يصفهُ أنّه عظيم بحسب نظر الناس قطعاً، بحسب الذين حضروا في ذلك الموقف. الروايات تقول: الناس جميعاً جاؤوا من كلّ مكان، فإنّ ذلك اليوم أساساً كان يوم عيد، وأولئك السَحَرة كان لهم أنصار ومُؤيّدون، وهذا الحدث قد هيّأ له فرعون بكلّ ما يتمكّن.. وضعوا ميداناً هائلاً كبيراً، وفرعون أيضاً وضعوا له محلّاً عالياً جدّاً.. وفي الروايات أنّ فرعون أحدثَ أيضاً في ذلك اليوم مِن شدّة الخوف والرُعب.

■ {وأوحينا إلى مُوسى أن ألقِ عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون}آيات الأنبياء هي مظاهر التأييد من الجوهر العلوي.. هذا هو التأييد العلوي للأنبياء {تلقف ما يأفكون} أي ما صنعوه باطلاً من سِحرهم، تبتلعه سريعاً ولا تُبقي له من أثر.. فقد جاءتْ على كُلّ ما جاء به أولئك السَحَرة وتحرّكت باتّجاه فرعون وهو على تلك البناية العالية.. وكان فرعون يرى أتون النار بين الشُعبتين، ولذلك أحدثَ وأحدثَ وبقي في حالة إسهالٍ مُتّصل! وفي بعض الروايات أنّ الناس داس بعضهم بعضاً.. ومات الآلاف من ذلك الاضطراب.. الناس دخلتهم الرهبة ممّا فعله السَحَرة، وإذا بشيءٍ مُرعب هائل لمّا ألقى موسى عصاه، ففرّ الناس من ذلك الميدان وتساقط الناس بعضهم على البعض وداس الناس بعضهم بعضاً فماتت الآلاف من الناس (فالحدث مُثير).

■ {فوقع الحقّ وبطل ما كانوا يعملون} هنا صوت علي.. هذه آثار عليّ (كُنت مع الأنبياء باطناً ومع رسول الله ظاهراً)، (كُنتُ مع الأنبياء سِرّاً ومع رسول الله عَلَناً)

■ {فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين* وألقي السحرة ساجدين} غُلب السَحَرة وغُلب فرعون وغُلبت هذه الجموع، وغلبتْ تلك العساكر وتلك القوّة الهائلة التي جاء بها فرعون!
{صاغرين} أذلّاء.. بعد كُلّ تلك الكبرياء وذلك التجبّر.. ابتداءً من كبيرهم فرعون، وانتهاءً بهؤلاء السَحَرة الذين وقعوا ساجدين على الأرض باختيارهم لشدّة رُعبهم، وفزعهم ولأنّهم علموا أنّهم أمام رجلٍ ليس ساحر، وإنّما رجل يمتلك قُدرة لا حدود لها!

■ {قالوا آمنا بربّ العالمين* ربّ موسى وهارون} هذه القدرة ليست قُدرة بشريّة.. هذه القُدرة لن تصدر إلّا من مالكٍ للأزمّة ومن قادر على كُلّ شيء، ومن مالكٍ لهذا الوجود.

● قولهم {آمنا بربّ العالمين} هذا هو التوفيق.. فهؤلاء لأنّهم استكانوا وأقرّوا أمام الحقّ وُفّقوا أن يسلكوا الطريق الصحيح.. فهم آمنوا بربّ العالمين مِن طريق مُوسى وهارون، وهذا هو توحيد أهل البيت أن نعرف الله مِن خِلال إمام زماننا.

● حديث سلسلة الذهب عن إمامنا الرضا هو الذي يشرح لنا حقيقة التوحيد (كلمة لا إله حصني فمن دخل حصني أَمِن من عذابي) وفي موطن آخر: (ولاية عليّ بن أبي طالب حصني فمن دخل حصني أمِن من عذابي)

■ {قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إنَّ هذا لمكرٌ مكرتموه في المدينة لتُخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون} فكأنّ الإيمان بالله يحتاج إلى إذن من فرعون!! والمدينة هنا هي عاصمة فرعون.

● {إنَّ هذا لمكرٌ مكرتموه في المدينة لتُخرجوا منها أهلها} هذا هو المنطق الفرعوني على طول التأريخ.. منطق (المؤامرة)! ففرعون يَرى أنّها مُؤامرة مُحاكة بين موسى وهارون والسَحَرة.. وهو يعلم أنّ هؤلاء السَحَرة هم مِن أتباعه، وهو الذي جَلَبهم، ولكن هذا هو التكبّر والتجبّر والعِناد وهذا هو الظُلم بآيات الله التي تجلّت على يد موسى وهارون. فحين حضر السَحَرة قال لهم: (نعم وإنّكم لَمن

المُقرّبين) ولكن حين اتّضحت الحقيقة صار الذين يُؤمنون بالحقيقة صاروا شُركاء في مُؤامرة. والأمر هو هو في الواقع الشيعي والسُنّي.. فما إن ينطق أحدٌ بالحق وينطق بالواقع الموجود على أرض الواقع حتّى يصير عميلاً، أو تطير رقبته! أمّا حُكّام العرب والمُسلمين فحكايتهم مُتعفّنة إلى أبعد الحدود وواضحة.

■ {لأقطعنَّ أيديكم وأرجلكم مِن خلاف ثُمَّ لأصلّبنّكم أجمعين}

تقطيع للأيدي والأرجل بالتعذيب.. وبعد التعذيب والتقطيع تأتي عملية الصَلب وهو أن يبقى الإنسان مُعلّقاً مِن دون طعامٍ ولا شراب حتّى يموت، هذا إذا لم يُوجّهوا له الرماح والسهام ووسائل القتل، أو أنّه ينزف دماً بسبب تقطيع يديه ورجليه حتّى يموت.

■ {قالوا إنّا إلى ربّنا منقلبون* وما تنقم منّا إلّا أن آمنا بآياتِ ربّنا لمّا جاءتنا ربّنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين}.. {أفرغ علينا صبراً} تعبير في غاية الجمال، وكأن الصبر يُصبّ عليهم مِن رؤوسهم إلى أقدامهم، مثلما نُفرغ وعاءً كبيراً من الماء عليهم فتبتلّ أجسادهم بالماء من أُمّهات رؤوسهم إلى أخامص أقدامهم... {وتوفّنا مُسلمين} كُل الأنبياء على الإسلام.

■ {وقال الملأ من قوم فرعون أتذرُ موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرَكَ وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنّا فوقهم قاهرون}

هنا الملأ مِن قوم مُوسى (النخبة من رجال الدين والسياسة والمال، الأقرباء وزُعماء الجيش والعساكر).. كُلّ أولئك مع طبقة السَحَرة الذين لا زالوا في قصر فرعون وفي حاشيتهِ- كُلّ أولئكَ يُريدون القضاء على موسى!

فبعد حادثة يوم الزينة، وبعد أن انقلب السَحَرة إلى الإيمان بموسى وهارون وجرى ما جرى على السَحَرة.. الناس كثيرٌ منهم صَدّقوا بموسى وإنْ لم يُعلنوا ذلك، ولكن قلوب الناس مالت إلى موسى، وصار لبني إسرائيل شأنٌ واضح، فلذلك يُوسوسون لفرعون ويقولون له: أنّك إذا تركت موسى فإنّه سيُفسد البلاد عليك، فعليك بكلّ الذين آمنوا بموسى خصوصاً من بني إسرائيل، لأنّ الأقباط لم يُعلنوا إيمانهم، والذين آمنوا أخفوا إيمانهم، وهناك من بني إسرائيل من آمن بموسى وكانوا كثيرين جدّاً.. فقام فرعون باعتقال بني إسرائيل الذين آمنوا وكانوا كثيرين جدّاً

● {ونستحيي نساءهم} مَن تُعجبنا مِن نسائهم فإنّنا نأخذها كي نستمتع معها وبها، ومَن لا تُعجبنا سنجعلها خادمةً في بيوتنا.

■ {قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إنَّ الأرض لله يُورثها مَن يشاء مِن عباده والعاقبة للمتقين}

الأسباب والحكمة الإلهية تقتضي أنّ الأمر بيد فرعون ولكنّ الأمور لن تدوم على ذلك.

الصبر من الإيمان كما تقول الروايات بمنزلة الرأس من الجسد، من دون صبرٍ لا معنى للإيمان في حياة المؤمنين.. الصبر قرين الإيمان.. الصبر وسيلة نجاة للمُحقّ وللمُبطل (مَن صَبَر ظفر) هذا القانون صحيح 100% والروايات تشرحه لنا، فمن صبر إمّا أن يظفر بكلّ مُراده أو ببعض مُراده على الأقل. {والعاقبة للمتقين} العاقبة الأكمل تتضح للإنسان عند موته، وإنّما الأمور بخواتيمها.

■ {قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون} كُنّا نعيش السُخرة والمهانة من قبل أن تأتينا وتُقيم الحُجج على فرعون وقومه في يوم الزينة.

● الروايات تُحدّثنا أن بني إسرائيل كانوا يرقبون العلامات، كانت عندهم علامات لِمجيء المُخلّص وهو (موسى) أن يُخلّصهم من عذاب فرعون، وحين أقبل موسى من أرض مدين وطبّقوا عليه العلامات وبدأت الحقائق تظهر شيئاً فشيئاً استبشروا خيراً وقالوا: إنّ الأمر قد قرب.

● {قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم} الرؤية كانت واضحة عند موسى النبي ولكنّه لابُدّ أن يُخاطب قومه وفقاً لقانون المُداراة، وما بقاؤه تلك السنين في بيت شُعيب من دون معنى ومن دون حكمة.

■ {ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلَّهم يذَّكرون} بعد كلّ تلك الأحداث والمُجريات جاء هنا تطبيقٌ للسُنّة الكونية التي مرّ ذكرها في الآية 94 في سورة الأعراف.

{بالسنين ونقص من الثمرات} هذا التعبير في الآية في لُغة العرب يُشير إلى المجاعة وقلّة الزروع وفسد الثمار وغلاء الأسعار وما يُؤدّي إلى تنغيص المعاش اليومي والحياة الاعتيادية.

■ {فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإنْ تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون} إذا جاءتهم الحسنة هم يستمتعون بها ويقولون نحن أصحابها ونحن أحقّ بها ونحن نستحقّ ذلك.. وإذا ما طرأ عليهم طارئ يُنغّص حياتهم يطّيرون بموسى ومن معه، يقولون: هذا الذي جاءنا من شُؤم موسى وقومه الذين آمنوا به.. فجعلوا موسى علامة للشؤم، وأخذوا يُعلّقون آثار سيّئاتهم وشُؤمهم على موسى!